الفصل الثالث

الرحيل المبارك

- الوفاة
- الشاعر

الوفاة

ورثى الشافعي خلق كثير يوم وفاته، منهم تلميذه المُزني. وعاد المشيعون وقد رأوا هلال شعبان.

أقام الشافعي في قبره مائتين وسبعين سنة هادئا مطمئنا، وفي سنة ٤٧٤ هـ بنى الوزير نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد، وأراد أن ينقل رفات الشافعي لدفنه في تلك المدرسة فأرسل بهدية عظيمة إلى أمير الجيوش «بدر الجمالى» وزير الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر وطلب منه نقل الرفات ووافق الخليفة الفاطمي، فلما علم أهل مصر بالخبر هاجوا وماجوا فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر باستعمال القوة فأحضر الوزير العمال والفَعَلة وأمرهم بالحفر فحفروا حتى إذا ما وصلوا إلى اللحد خرجت من اللحد رائحة أسكرتهم، فلما أفاقوا استغفروا ربهم فأمر الوزير بردم القبر كما كان فلما علم الناس بذلك وعلم نظام الملك في العراق أعلم كل الناس بذلك وارتفعت منزلة الشافعي بين الناس واتبع مذهبه كثير من أهل تلك البلاد.

أما أهل مصر فلازموا زيارة قبر الشافعي أربعين يوما بلياليها، وكان الزائر لا يصل إلى القبر إلا بشق الأنفس من كثرة الزحام.

ومما قيل في الشافعي رحمه الله بعد وفاته:

تسربل بالتقوى وليدا وناشئا ... وخُصّ بلب الكهل مذ هو يافعُ

فآثاره فينا بدور زواهر ... وأحكامه فينا نجوم طوالع

تعرض الشـــافعى فى حياته لأمراض كثيرة من بينها «البواسير» الذى كان سببا فى وفاته حيث نزف كثيرا وأدى ذلك النزف إلى الوفاة.

يُروى عن الربيع أنه دخل عليه قرب وفاته فقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعى وقد أحس بدنو أجله:

أصبحتُ من الدنيا راحلا، ولإخوانى مفارقا، ولكأس المنية شـــاربا، ولسوء أعمالى ملاقيا، وعلى الكريم سبحانه واردا.. ثم أنشد:

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلما

وفاضت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بين يدى تلميذه «الربيع الجيزى» وانتشـــر خبر وفاته فى مصر فعم أهلها الحزن والأســـى وخرج الناس من بيوتهم يريدون حمله فوق أعناقهم وهم فى اضطراب من شدة هول المصاب.

وأصبـــح يوم الجمعة «٣٠» رجب ســـنة «٢٠٤هـــ» لا حديث للناس إلا طلب الرحمة والرضوان للراحل الكريم، وذهب أهله إلى الوالى وطلبوا منه الحضور لغُسل الإمام- كما أوصى- فقال لهم: هل ترك الإمام دينا؟ قالوا: نعم، فقضى الوالى دينه، ثم نظر إليهم وقال: هذا معنى غسلى له.

وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعى مخترقة الفسطاط وأسواقها حتى إذا وصلت إلى بيت السباع وهو شارع السيدة نفيسة الآن أُدخل النعش إلى فناء دار الســـيدة نفيســـة وصلت عليـــه صلاة الجنازة وقالت: رحم الله الشافعى إنه كان يحسن الوضوء. خرجت هذه الجملة من فم الســـيدة نفيســـة وصَلّت عليـــه صلاة الجنازة وقالـــت: رحم الله

الشـــافعى لتحل إشكالا كبيرا كان قائما بسبب الترتيب فى الوضوء بين أتباع الشافعى وأتباع غيره من الأئمة الآخرين.

الشاعر

قد يكون عجبا للناس الذين لم يحيطوا بسيرة الشافعى علما أن يقال لهم إنه كان شـــاعرا، ولكن هذا هو الذى كان؛ فإن الشافعى كان شاعرا يجيد قول الشعر، وإن لم ينصرف إليه ولم يتوسع فيه إذ كان مُقلا عنه لاشتغاله بالفقه والعلم.. وهذا هو «المبرِّد» يقول: «كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس، وأعرفهم بالقراءات».

وحُـــق للشـــافعى العالم الفقيه أن يجيد قول الشـــعر الحســـن بجوار علمـــه وفقهه، فقـــد بدأ أمره بطلب الشـــعر والأدب وأيـــام العرب وهو قـــد رحـــل إلى موطن قبيلة «هذيـــل» وأقام بينها زمنـــا طويلا يتلقى عن أبنائها اللغة ويحفظ منهم أشـــعارهم حتى صار حجة فى أشعار هذيل، يقـــول الأصمعى: صححت أشـــعار هذيل على فتى مـــن قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى.

كما قال الأصمعى كذلك: قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة!!

وظل الشافعى يحفظ هذه الأشعار حتى بعد أن شغله الحديث والفقه ويردد هذه الأشـــعار بنجـــوة من الذين يضيقون بهـــا.. فقد قال مصعب الزبيرى: كان أبى والشـــافعى يتناشدان فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا، وقال: لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا!

وحفظ الشـــعر خطوة واسعة نحو احتذائها فى نظم الشعر عند المستعد لنظمه فكيف بحافظها إذا كانت عنده الفطرة الشـــعرية أو الملكة الدافعة إلى قول الشعر؟

والشـــافعى كما يلوح لنا ذو فطرة وذو ملكة وذو اســـتعداد وذو اقتدار على الانتفاع فى صياغته الشـــعرية بالزاد الشـــعرى الجليل الكبير الذى حفظه ووعاه..

كان الإمام إذا أنشد شعرا انتسب إليه السِحر أصح انتساب، وتدفقت على لسانه معجزات البلاغة، وانهمرت فيه الحِكم، وقد انسابت حلوة رقيقة عذبة، وانتشرت منها المعانى دررا، فسالت على يراعه[1] تتحاسد فى التســـابق إلى خواطره فإذا هى إكليل درٍ ما لمنظومها ســـلك. وإذا بها ديوان نَظَم عِقد البلاغة ومعسول العبارة وبديع الحكمة ورقة الموعظة.

إن شـــعر الشـــافعى كما قال: «لوددت أن الخلق تعلمه ولم ينسب إلى منـــه شـــىء أبدا، وما فى قلبى من علـــم إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب إلىّ» فننوه هنا بأنه لا يصح لنا أن نجزم بصحة هذه القصائد كلها للشافعى.. ولكنه فى النهاية فن وعلم وحكمة وتجارب وعظات بحلوها ومرها تضىء الأنوار على كثير من مشكلاتنا وأخص ما نعانيه ونتألم منه.

وفيه البُعد عن سقطات الشعراء وتبذلهم واستجدائهم ومجونهم..

وفيه الرحيل بالنفس الإنسانية إلى رحاب العلم والاتعاظ بالأيام وتقلب وصروف الدهر ونُوبَه، والارتفاع بها إلى ذرا الأخلاق ومدارج الكمال.

لهذا رأيت أن أتناوله بالشـــرح من منظـــور أخلاقى حكيم ففيه الدرر والجواهر اللامعة المكنونة التى تحتاج لغواص ماهر مغامر لاســـتخراجها وإبرازها للنفوس الباحثة عن المعرفة المضناة من الأيام فى كل زمان ومكان!

---

(١) اليراع: القلم.